لمحة عن مقام المحبة عند رابعة العدوية

د.هاجر الطيب الطاهر عمران
كلية الآداب – جامعة الزاوية

مقدمة:

مقام المحبة من مقامات التصوف العالية التي لا يصل إليها إلا القليل من السالكين، الذي يختصهم الله بعنايته.

اعتبروا الصوفية أنَّ مقام الحب حقيقة واقعة اختصوا بها، وعرفوها في تجاربهم وشعروا بلذاتها، وأنَّ من لوازم المحبة من شوق وحنين وأنس ومناجاة ولذة وقرب وألم...، إنَّما هي حقائق أدركوها في مواجيدهم، فالحب لله تبارك تعالى من الأمور الدقيقة للغاية، وقد قال فيه الرسول ﷺ: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه ممَّا سواهما"[1]، وهذا الحب هو ما كان عليه رسول اللهﷺ، يدعو له ويقول: "اللهم اجعل حبك أحب إليَّ من نفسي، وسمعي وبصري و أهلي و مالي ومن الماء البارد"[2].

وهو ما يعنى أنْ يكون هذا الحب (لله) بالقلب والروح، وبالكلية حتى يكون حُبُّ الله تعالى أغلب في الطبع أيضاً، والجلبة من حب الماء البارد فيكون حُبًّا صَافِيا خَالِصاً.

لقد أدركت رابعة العدوية سر الحياة الصوفية وجوهرها وفناء المحب في المحبوب، فصار مقام المحبة أو الحب الإلهي من بعد رابعة المحور الذي تدور عليه الحياة الروحية والهدف الذي تتجه إليه. فكان من أوائل من تكلَّموا في المحبة، الحارث المحاسبي، والجنيد، وأبو بكر الشبلى، إذ يعد هذا الحب طابعاً زهدياً نابعاً من ظروف البصرة وتسرّب منها إلى التصوف بعد رسوخ أركانه في أواخر القرن الثالث الهجري /التاسع الميلادي.

والسؤال التالي ما الغاية من مقام المحبة عند رابعة العدوية؟ إذْ أنَّ الهدف من هذا البحث، وسبب اختياري لهذا الموضوع بأنْ أوضح من خلال هؤلاء المحبين لله والتي منهم رابعة نموذجاً، أنَّ الحب لله يجعل العبد طائعاً زاهداً فيما سوى الله تعالى، راضياً بما قسمه له، شاكراً له حامداً في كل الأحوال، كما انتهجت في هذا البحث منهجاً وصفياً تحليلياً. وقد قسمت بحثي إلى الآتي:

أولاً- الحب في اللغة والاصطلاح:

أ- **الحب لغةً:** الحب في لغتنا العربية مستمد من (اللزوم) و(الثبات)[3]، والحب كذلك، لفظ يجرّ وراءه سلسلةً من المعاني تزيد عليه في اللزوم والعناد، أو التوقف والعجز، فالهوى عند الثعالبي، أول مراتب الحب ثم تأتى العلاقة وهى الحب اللازم للقلب. ثم العشق وهو اسم لما فضل (زاد) عن المقدار، الذي اسمه الحب، ثم الشغف(بالعين المهملة)، وهو احتراق القلب مع لذة يجدها! وكذلك (اللوعة) ثّم الشغف (بالمعجمة)، وهو أنْ يبلغ الحب شغاف القلب، وهي جِلدةٌ دونه ثم يرتفع إلى (الجوى) وهو الهوى الباطن ويشتد إلى (التّيْم) وهو أن يستعبده الحب، ومنه تيم الله أي عبد الله ومنه رجل مُتَّيم. ثم (التَبْتل)، وهو أنْ يُسْقمه الهوى، ومنه رجل مبتول ثم (الهيوم)، وهو أنْ يذهب على وجهه لَغَلَبَة الهوى عليه، ومنه رجل هائم[4].

وينبغي لنا ألا ننسى بالإشارة أيضا إلى أنَّ(العِشق) و(العَشق) وهو عجب أو زهو المحب بمحبوبة، أو إفراط الحب، ويكون في عفاف وفي دعارة أو هو "عمَىَ الحسّ على إدراك عيوبه"[5]، ويستمد معناه من اللصوق المحكم كما في القاموس المحيط للفيروزآبادى. ويفضل أنْ نضيف (الخُلّة)، إلى هذا التتابع، وتعني الصداقة الحميمة، وكانت كلمة المخالّة مستعملة في القرن الأول بمعنى الصداقة[6]. وقد قيل فيها:

قد تخلّلْت مسلكَ النفس منى
ولذا سُمِّىَ الخليلُ خليلا
فإذا ما نطقتُ كنت حديثي
وإذا ماسكتُّ كنت الغليلا[7].

ب- الحب اصطلاحاً: أمَّا في الاصطلاح فالحب في معناه الخاص: عاطفة تجذب شخصاً من الجنس الآخر، مصدرها الأول المَيْل الجنسي، والحب في معناه العام عاطفة يؤدي تنشيطها إلى نوع من أنواع اللذة مادية كانت أو معنوية. فعاطفة حب الذات ترمي إلى إرضاء الشهوات الشخصية سواء أكان موضوعُ الشهوة الطعام والاستيلاء على المقتنيات، أو إثبات الذات.

والحب في نقائه هو حب الله في ذاته بلا خوف وبلا أمل؛ وهذا هو الحب الخالص أو المحبة الكاملة.

وساق متناولاً باروخ سبينوزا حباً أسمى من هذا هو: الحب العقلي لله، بمعنى"العلم به، الذي نستمده من علمنا الحق {الخالص} بالأشياء"[8]. والحب في نقائه مرتب على تخيُّل كمال في الشيء السارّ أو النافع، يفضى إلى انجذاب الإرادة إليه، كمحبة العاشق لمعشوقه، والوالد ولده، والصديق لصديقه، والمواطن لوطنه، والعامل لمهنته[9]. وليس هناك من فرق في الحب بين الأخذ والعطاء، فقالوا: "إذا ظنّ المحب أنَّ محبوبه ملْكٌ له،لا يشاركه فيه أحد، كان حبه أخذاً واستئثاراً كمحبة الطفل لوالديه، وإذا وهب المحب نفسه للمحبوب كان حبه عطاءً؛ والعطاء أسمى من الأخذ "[10]. وجاءت كلمة (الحب) في القرآن الكريم في اثنين وثمانين موضعاً من آياته منها: قال تعالى:**﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾** سورة البقرة: الآية،156، وقوله:**﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ**

عَلِيمٌ﴾ {سورة المائدة :الآية ،45 }،وقوله تعالى: **﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾**، سورة آل عمران: الآية،31، وقوله تعالى:**﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾** سورة آل عمران الآية،11.

وكان علينا في هذا البحث أنْ نذكر أنَّ الصوفية قسَّموا طريقهم إلى منازل أو مقامات[11]، فكان المسمَّى واحداً، وإنْ اختلفت التسميات، وقد تعارف على تسميتها(بالمقامات والأحوال) ولأهمية هذه المنازل ولعدم قيام الطريق إلا بها كان لكل إمام من أئمة التصوف فيها مذهب، وقد قسَّمها البعض كالسراج الطوسي إلى سبعة فقط: فهي كالتوبة، والورع، والزهد، والفقر، والصبر، والتوكل، والرضا[12].

أمَّا المكي أبو طالب والإمام الغزالي فقد عدَّاها تسعة أقسام هي: التوبة، الصبر، الشكر، الرجاء، الخوف، الزهد، التوكل، والرضا، وأخيراً المحبة[13]. فالمقام وكما عرَّفه السراج بأنَّه "مقام العبد بين يدي الله فيما يقام فيه من العبادات و الرياضات والانقطاع لله تعالى"[14]، وأمَّا الحال فهو "الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم"[15].

من الواضح جاء اختلاف أئمة التصوف في تقسيمهم للمقامات والأحوال بسبب التداخل القائم بين هذه المقامات بعضها مع بعض من جهة، وتداخلها من جهة أخرى مع الأحوال، وهذا ما أوضحه السهروردى بقوله: "قد كثر اشتباه الحال والمقام واختلفت إشارات الشيوخ في ذلك، ووجوه الاشتباه لمكان تشابههما وتداخلهما، فتراءى للبعض الشيء حالاً، وتراءى للبعض مقاماً، وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما"[16].

فما هي المحبة عند الصوفية؟

تعرف المحبة بأنَّها شدَّة ميل القلب إلى الشيء، ولحصول الحب لله تعالى طريق يبدأ بتزكية النفس. ولهذا الحب أصل كبير في الإيمان "إذ أصل الإيمان معرفة الله تعالى بصفاته، فإذا عرفه المرء بالإحسان إليه أحبه"[17].

ولا تصدق محبة المسلم لله إلا بأداء ما افترضه عليه، فلا محبة بلا عمل، ولا تصدق كذلك إلا بإتباع الرسولﷺ. والحب لله من شروط الإيمان، قال تعالى:﴿**قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ**﴾ سورة التوبة: الآية،24 فما هي أقسام المحبة؟ المحبة تتعدَّد بحسب القوى المدركة في الإنسان ودوافعها:

1- محبة الروح.

2- محبة القلب.

3- محبة النفس.

4- محبة العقل.

فما الحب الإلهي الخالص الذي تحدث عنه الصوفية أمثال رابعة؟

هو محبة الله تعالى التي يجب أنْ يكتمل فيها الحب بكل هذه القوى. وهذا هو الحب الخالص في نظر الصوفية، وهو أنْ يحب الله تعالى بكليته، وهذا ما كان يدعو به الرسول ﷺ "اللهم اجعل حبك أحب إليّ من نفسي وسمعي وبصري وأهلي ومالي ومن الماء البارد"[18].

والسهروردي في معنى هذا الحديث قال: "معناه استئصال عروق المحبة بمحبة الله تعالى حتى يكون حب الله تعالى غالباً، فيحب الله تعالى بقلبه وروحه وكليته.

حتى يكون حب الله أغلب في الطبع أيضاً والجلبة من الماء البارد"، وهذا ما يعرف بحب الخواص.

ومن هنا ينقسم الحب إلى نوعين أحدهما من المقامات والآخر من الأحوال:

أ- **الحب العام:** وهو ما يدرك في امتثال الأمر، وربما كان حباً من معدن العلم بالآلاء والنعماء، وهذا الحب مخرجه من الصفات. وهذا النوع من الحب هو ما يدرجه أغلب مشايخ الصوفية في المقامات، وقد نظروا فيه إلى كسب العبد.

ب- الحب الخاص: وهو حب الذات عن مطالعة الروح، الحب الذي فيه السكرات، وهو موهبة من الله تعالى واصطفاء.

وهذا الحب يكون من الأحوال،لأنَّه محض موهبة ليس للكسب فيه دخل. وهو خاص بالصديقين والعارفين.

ومكانة هذا الحب من الأحوال كمكانة التوبة من المقامات، وهو أصل للأحوال السنية، وعلى ذلك من صحت محبته تحقق بسائر الأحوال[19].

ولما بين المقامات والأحوال من تشابه وتداخل كان لابد من وجود علاقة ما بين التوبة وهي أصل المقامات، وبين الحب وهو أصل الأحوال. فالتوبة تشتمل على قسم من الحب، وهو الحب العام. يقول السهروردى: "التوبة بهذا الحب بمثابة الجسم لأنَّها مشتملة على الحب العام الذي هو لهذا الحب كالجسد، ومن أخذ في طريق المحبوبين وهو طريق خاص من طريق المحبة يكمل فيه ويجتمع له روح الحب الخاص مع قالب الحب العام الذي تشتمل عليه التوبة النصوح"[20].

ممَّا سبق يتضح أنَّ السالكين في الحب شخصان هما: الأول محب وللكسب دخل في هدايته قال تعالى: "**﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾** سورة العنكبوت: الآية،69.

والثاني- محبوب ليس للكسب دخل في اجتبائه فقال تعالى: **﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ﴾** سورة الشورى: الآية،13. يتضح جلياً أنَّ الصوفية يروا التقلب في

أطوار المقامات والترقِّي فيها من مرحلة إلى أخرى، إنَّما هو طريق المحبين، أمَّا المحبوبون فلا يكون لهم ذلك التقلب والترقِّي في الأطوار، وإنَّما يطوى لهم بساط أطوار المقامات. فوظيفة المقامات كلها أنَّها مصنَّفة للنعوت والصفات النفسية، وتكسب النفس الصفاء الخالص. والمحبوب حيث أشرقت عليه أنوار الحب الخاص خلع ملابس صفات النفس ونعوتها واندرج فيه صفو المقامات وخلاصها بأتم وصف، دون التقيد بها[21].

ممَّا سبق نستطيع القول أنَّ المتصوفة منهم من أعدَّ مقام المحبة أكمل المقامات، متأتياً للعبد بالكسب أي من بعد تخليه، والتي هي تخلية النفس من الرذائل، وهذا لا يكون إلاَّ بالرياضات العملية من صلاة وصوم وذكر وغيرها، وعندها تتحلَّى النفس بأعظم الفضائل التي هي المقامات من محبة، توبة، ورع، زهد، صبر، توكل ورضا. وعليه وجدوا في مقام المحبة: أنَّ المحب يبذل لله من غير مقابل يرجى، وهو الذي لا يطلب عوضاً، ولا يمكن أنْ يعبِّر عن الحب إلا بالحب نفسه، فكيف إذا كان الحب وعذب الشوق كله لله سبحانه وتعالى؟ وهذا هو مقام الحب عند رابعة موضوع بحثنا.

ثانياً- لمحه عن سيرة رابعة:

أ- **اسمها ولقبها وكنيتها:** رابعة إسماعيل العدوي البصرية. ولدت في مدينة البصرة، (سنة هـ 100هـ /717م)، من أب عابد فقير، كانت ابنته الرابعة، هذا يفسر سبب تسميتها رابعة. ويقول فريد الدين العطار: "وقد توفي والدها وهي طفلة دون العاشرة، ولم تلبث الأم أنْ لحقت به، لتجد رابعة وأخواتها أنفسهن بلا عائل يعينهن على الفقر والجوع والهزال، فذاقت رابعة مرارة اليتم الكامل دون أنْ يترك والداها أسباب العيش لهن سوى قارب ينقل الناس بدراهم معدودة في أحد أنهار البصرة"[22]. كانت رابعة تخرج لتعمل مكان أبيها ثم تعود بعد عناء تهوِّن عن نفسها بالغناء، وبذلك أُطلق الشقاء عليها وحرمت من الحنان والعطف الأبوي، وبعد

وفاة والديها غادرت رابعة مع أخواتها البيت بعد أنْ دبَّ في البصرة جفاف وقحط ووباء. وصل إلى حد المجاعة ثم فرَّق الزمن بينها وبين أخواتها، وبذلك أصبحت رابعة وحيد مشرَّدة، وأدَّت المجاعة إلى انتشار اللصوص وقُطّاع الطرق، فخطفت رابعة من قبل أحد اللصوص وباعها بستة دراهم لأحد التجار القساة، فأذاقها سوء العذاب. وتوفيت (في الثمانين من عمرها نحو سنة 180هجرية)، وهي وعلى هذا النحو بخلاف بنت إسماعيل الشامية زوجة الصوفي أحمد بن أبى الحواري المتوفية (سنة235 هـ)، فالأولى دفنت بالبصرة، والثانية قبرها ببيت المقدس اختلف الكثيرون في الاسمين على أنَّ الثانية هي الأولى، ولكن كان الخطأ، فالأولى هي رابعة وقبرها في البصرة، وهذا ما تناقلته الكتب والروايات[23].

من الواضح أنَّ ظروف رابعة هي التي هيأتها لأنْ تكون صاحبة هذا الاتجاه الروحي في التصوف، ألا وهو الحب الذي به نبذت كل ما هو أرضي، وتسامت في الله حباً وكيف ذلك؟ وهي من تجلي حبها لله فتركت الدنيا وما حوته.

ب- لقبها: كانت تلقَّب رابعة بالعدوية البصرية، ويفسر سبب تسميتها برابعة لأنَّها البنت الرابعة ويرى بعض الباحثين أنَّ آل عتيق هم بني عدوة ولذا تسمى العدوية.

ج- **كنيتها:** أم الخير رابعة[24].

ثالثاً- البيئة العامة:

أ- **أهم مظاهر الزهد في البصرة، والعوامل التي أدَّت إلى ظهورها:** للحديث عن البصرة وقبل الحديث عن أهم مظاهر الزهد فيها، نقول أنَّها ورثت ميناء الآيلة القديم. فكانت وعلى هذا الأساس ميناء تجتمع فيه الأجناس المختلفة وتختلط فيه الثقافات المتباينة، ويظهر فيها الجديد من الأفكار والثقافات والميول، وكثر فيها الأعاجم فكانت أقل قلقاً من الكوفة، وأضعف مشاركة في الأحداث السياسية، وأكثر استقراراً، وأقرب إلى التحضُّر والتأثر بالتقاليد المدنية؛ ويرى الدكتور كامل الشيبى: أنَّ البصرة كانت تتمتع برخاء اقتصادي تسبب في استقرارها السياسي؛

وقد وصف رجل من أهل المدينة، لما نزل هذا المصر، بقوله: "البصرة خير البلاد للجائع والغريب والمفلس "[25].

وكان البصريون يفتخرون بأنَّهم "أكثر أموالاً وأولاداً وأطوع للسلطان"[26]. كانت ظروف البصرة على هذه الصورة ينبغي أنْ نبحث عن مظاهر الزهد التي ظهرت فيها، والعوامل التي أدَّت إليها، وولدت معها طابعاً زهدياً خاصاً متمثلاً في(المحبين لله) والتي منهم رابعة العدوية.

1-كانت في البصرة كغيرها من مراكز الإسلام، زهد إسلامي ينبع من طبيعة هذا الدين الذي تنعكس منه المثل الزهدية غير أنَّ فريقاً من سكان البصرة قد زادوا على الحد المعتاد من هذا الزهد لممارستهم لمجاهدات وتطبيقهم لتقاليد لم يألفها المجتمع الإسلامي، ومن ذلك ظهور طائفة من الزهَّاد كانوا يمتنعون عن الدخول في الحمام، وعن تقصير شعورهم، وهما تقليدان يتنافيان تماماً مع طابع الإسلام في الحرص على النظافة، والتي هي من الإيمان لقوله تعالى:**﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾** سورة المدثر الآية،3، وقوله: **﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾**سورة التوبة: الآية108 من الواضح أنَّه ومالا يختلف فيه اثنان أنَّ الإسلام هذا الدين الحنيف، كان آمرا بالنظافة،ابتداءً من الصلوات الخمس التي أمر الله بها عباده، وفي الحياة اليومية المعتادة. فالشيبى يعتقد راداً عن ذلك: هذان التقليدان كانا معروفين عند الفرس من قبل. دون العرب بوصفه من تقاليد النسك القديم عندهم، وبهذا يعد هذا المظهر أول صورة تميز بها زهد البصرة فوق التقاليد الزهدية الإسلامية المعروفة[27].

2-أدَّى الرخاء الاقتصادي في البصرة إلى ميل الناس إلى التوفيق بين هذه الأمور الاقتصادية وبين حياتهم الاجتماعية، وهذا الأمر أدَّى بدوره إلى ظهور نفر من الشباب الفاسق على صورة عصابات وجماعات تنتهك الحرمات، وتبحث عن

المتعة على أي صورة كانت؛ وقد أطلق على هؤلاء اسم (السفهاء)، فما يؤكده الشيبى بقوله: "قد أدَّى هذا إلى انتشار التفسخ الخلقي والتحلّل من المثل العليا إلى رد فعل زهدية تتناسب مع نقض هذا الشكل من التحلل الخلقي[28].

ممَّا سبق عرضه نستطيع القول، نتيجة هذا الاضطراب في القيم الخلقية في البصرة فمن الطبيعي أنْ يظهر وعاظ ومحبون، **فأمَّا الوعاظ** فتفرَّدوا بوعظهم الخلقي وعرفوا بشدة التأثير والتذكير للناس، فاستعانوا بمواعظ مأثورة من الحكايات والأخبار فكان منهم : عبد الواحد بن زيد،(ت سنة177هجرية)، والحسن بن يسار البصري(ت 110هجرية) إذ وصف بالحساسية الشديدة من الظروف التي كانت البصرة تمر بها فوصف بالخوف الشديد والبكاء والحزن [29]. **أمَّا المحبين** فكان توجههم روحي لله، لا يبتغون من وراءه جزاءً ولا شكوراً، بل حباً وشوقاً لله، وما يحمله هذا التوجه الروحي من نبذ كل مادي – الحياة الدنيا– فتساموا عن كل ذلك إلى ما هو أعظم، حب الله والشوق إليه أبداً، ولكي نكون أكثر موضوعية فرابعة العدوية لم تكن وحيدة في هذا التوجه الروحي ألا وهو(الحب الإلهي أو مقام الحب)، بل كثر المحبون في البصرة وكان منهم (عامر بن عبد قيس)، أول زاهد استطاع أنْ يتخلَّص من همومه الشخصية في الاتجاه إلى الله بالحب، وكان قائلهم يقول: "أحببت الله حباً سهلاً على كل مصيبة ورضاني بكل قضية؛ فما أبالى مع حبي إياه ما أصبحت عليه"[30].

وظهر المحبون في البصرة الواحد بعد الآخر، وكان منهم (خُلَيْدالعصري)، وهو من بطن من قبيلة بني عبس، وكان يقول: "يا أخوتاه، هل فيكم من أحد لا يحب أنْ يلقى حبيبه؟ ألا فأحبوا ربكم، وسيروا إليه سيراً كريماً"، ومنهم(كَهْمَس القيسي)، الذي كان يقول في جوف الليل: "أتُراك معذّبي –وأنت قرة عيني– يا حبيب قلباه؟!". ثم ظهر بَعْدُ (عتبة الغلام) الذي اندفع في الحب الإلهي، فكان يقول: "إنْ تعذبني فأنِّي لك محب، وإنْ ترحمني فإنِّي لك محب"[31].

ممَّا سبق يتضح أنَّ مقام الحب عند هؤلاء كان حب عن صدق، بمعنى حب لله وجماله وجلاله ولأنَّه الواحد الأحد الفرد الصمد، حبٌّ أغناهم عن الدنيا وأفقرهم دائماً إليه، فهجروا هذه الدنيا وتساموا في ذلك حباً لله. وكيف لا يكون هو الحب والحبيب ولا يهيم فيه الصوفية حباً؟، وهو الرحمن الرحيم الملك القدوس قال تعالى:**﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيم، هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ،هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾** سورة الحشر: الآيات22-23-24.

فليس من العجيب أنْ تظهر في البصرة رابعة العدوية، سيدة للحب الإلهي، معبِّرة عن روحٍ زهديه، نبعت من ظروف البصرة بالذات. فماذا عن مقام الحب عند رابعة العدوية؟

ب- مقام المحبة عند رابعة العدوية: المحبة لله عند رابعة لم تأت هكذا، بل نتيجة لظروف البصرة التي سبق أنْ ذكرناها، فضلاً عمَّا مرَّت به هي شخصياً في حياتها، فما هو معروف أنَّ رابعة العدوية كانت تقرض الشعر، فاستعملها سيدها للغناء، وكان ذلك يسخطها عليه كما يرى الحفني: بسبب اتجاهاتها الدينية القوية حتى أنَّها شرعت في الهرب، وناجت ربها قائلة: "إلهي إني غريبة ويتيمة، وأرسف في قيود الرق، ولكن همي الكبير أعرف أراض عني أم غير راضٍ"[32].

الواضح أنَّ رابعة كان توجهها الديني لله، توجهاً ملك كل شيء فيها، فخافت أنْ تبوء بغضب الله بسبب ما كان يجبرها سيدها عليه، وقد زاد هذا من تهافت رابعة على العبادة والابتهال هو من أقالها من عثرتها، فحب المحبون لله نجاة، إذ تَسمّع عليها سيدها في ليلة فوجدها وهي ساجدة تقول: "إلهي أنت تعلم أنَّ قلبي يتمنَّى طاعتك، ونور عيني في خدمتك، لكن تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من

عَبدَتك"[33]، فلما كان الصباح طلبها سيدها وأعتقها، فكان ذلك مدعاة للتوجُّه للشكر لربها، فانصرفت بكليتها إليه وقد تحرَّرت من رقِّها، وكانت إذا انتهت من صلاة العشاء تصعد إلى سطح دارها بعد أنْ تشد عليها درعها(*) وخمارها وتدعو "إلهي أنارت النجوم، ونامت العيون، وأغلقت الملوك أبوابها، وخلا كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يدك"[34].

ممَّا سبق عرضه نستطيع القول أنَّ صعود رابعة وتعبُّدها على سطح دارها، ألا يذكِّرنا بأنَّها صارت عادة للصوفية في القرن السادس والسابع الهجريين، ومن بعده سواء كانت قصداً أو من غير قصد، تحديداً الشيخ أحمد البدوي شيخ الطريقة البدوية أو السطوحية، إذ يقول محمد جودت في هذا الصدد: "ومكث أحمد البدوي(*) على السطح اثنتا عشر سنةُ يدعو الخلق إلى الله، ويربي أئمة وأقطاباً ملئوا الدنيا علماً ونوراً، فكان السطح أشبه ما يكون بمسجد الصفة الذي كان يتعبَّد فيه صحابة رسول اللهﷺ فينقطعون ويعمرون الأسحار بالذكر والاستغفار"[35]. حب رابعة العدوية حب تقوى وعبادة سرى في النفس وسكن الروح أبداً، فكانت حياة رابعة عبادة وصلاح، فهاهي تُقبل على الصلاة فإذا كان السحر وطلع الفجر قالت: "إلهي هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر، فليت شعري أقبلت مني ليلتي فأهنا، أم رددتها عليّ فأعْزَى؟ فوعزتك هذا دأبي ما أحييتني وأعنتني!"[36]، وما أحوج هذا الزمان إلى تقاة عُباد أمنوا بالله ورسوله، أمثال رابعة العدوية أحبوا الله فكان الحب هو الغاية والتقوى، هي السبيل قال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآَمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾** سورة الحديد: الآية28، والله يحب التقى الغنى لقولهﷺ: "إنَّ الله يُحبُ التقيَّ الغنيَّ الخفيَّ"[37]، ورابعة جمعت التقوى لله، والغنى فهي غنية عن الخلق بالله دائمة الافتقار إليه، لم تطلب الجزاء والشكر، بل أحبت الله شوقاً وحباً له، لا طمعاً فيه، وتقول منشدة في حياتها الجديدة مودعة صفحة الماضي: تركت هوى ليلى

وسُعدى بمعزل وعدت إلى مصحوب أول منزلي ونادت بي الأشواق مهلا فهذه منازل من تهوى رويدك فانزل [38]. فحب رابعة الحقيقي كان (الله) لذا نجدها تزهد عن الزواج وتخطب مرتين، في الأولى لعبد الواحد بن زيد، وهو صوفي كما ذكرنا، وفي الثانية لأمير البصرة محمد بن سليمان الهاشمي ويَعِدها بمائة ألف مهراً، وبعشرة آلاف في كل شهر دخلاً، فخاصمت الأول عدة أيام إلى أنْ صالحها عليه بعض الصوفية فجاءت على استحياء فقالت له: "يا شهواني اطلب شهوانية مثلك...! وكتبت إلى الثاني بأنَّك شغلتني على الله "[39]. وتقول رابعة:

راحتي يا إخوتي في خلوتي
وحبيبي دائماً في حضرتي
لم أجد عن حبه عوضاً
وهواه في البرايا محنتي
حيثما كنت أشاهد حُسنه
فهو محرابي إليه قبلتي
يا طيب القلب يأكل المنى
جُدْ بوصل منك يشفى مهجتي
يا سروري وحياتي دائماً
نشأتي منك وأيضاً نشوتي
قد هجرت الخلق جمعاً ارتجى
منك وصلاً فهو أقصى منيتي[40].

ممَّا سبق عرضه يتضح أنَّ رابعة العدوية تمتعت بموهبة الشعر، وتأجَّجت بعاطفة قوية ملكت حياتها، فخرجت الكلمات معبِّرة عمَّا يختلج بها من وجد وعشق لله، فكان شعرها رسالة لمن حولها؛ ليحبوا ذلك المحبوب العظيم إذ قال يوماً:

"سفيان الثوري لرابعة ما حقيقة إيمانك؟ قالت ما عبدته خوفاً من ناره، ولا حباً لجنته، فأكون كأجير السوء، بل عبدته حباً له وشوقا ًإليه"[41].

وقالت في ذلك نظماً من قصائدها التي تصف حب الخالق فيها، وهو من أشهر أبياتها السائرة في الحب الإلهي فهي تقول:

عرفت هواك مد عرفت هواك
وأغلقت قلبي عمن سواك
وكنت أناجيك يا من ترى
خفايا القلوب ولسنا نراك
أحبك حبين حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاك
فأما الذي هو حب الهوى
فشغلي بذكرك عما سواك
وأما الذي أنت أهل له
فكشفك للحجب حتى أراك
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي
ولكن لك الحمد في ذا وذاك
أحبك حبين حب الهوى
وحبا لأنك أهل لذاك
واشتياق شوقين شوق النوى
وشوق لقرب الخلي من حماك
فأمَّا الذي هو شوق النوى
فمسرى الدموع لطول نواك
وأمَّا اشتياق لقرب الحمى

فنار حياة خبت في ضياك

ولست على الشجو أشكو الهوى

رضيت بما شئت لي في هداكا[42].

ممَّا سبق نستنتج أنَّ الغاية من مقام المحبة عند رابعة، هو حب لجمال الله وجلاله وهو أعلى رتب الحب علواً. ويشير الإمام الغزالي هنا إلى (لذة مطالعة جمال الربوبية) وهي التي عبَّر عنها رسول الله ﷺ، حيث قال حاكياً عن ربِّه تعالى وهي من منح الله للصالحين من عباده عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ – صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ– : "يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَعْدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ"[43]، ثُمَّ قَرَأَ **﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾** سورة السجدة:الآية 177.

وأخيراً نقول من الواضح أنَّ مقام المحبة عند الصوفية ومنهم رابعة نموذجاً،عبَّر عن حب المتصوفة لله وحبهم له، وهذا المقام لا يكون للصوفي إلا عن إيمان بقوله تعالى:**﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾** سورة فصلت: الآية 30. فكانت رابعة نموذجاً من المحبين الذين أحبوا الله تعالى لأنَّه هو الحب الحبيب لقوله تعالى: **﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾**سورة المائدة :الآية،56. فتكون بذلك صاحبة اتجاه روحي فضلت به الآجلة عن العاجلة، فما السبب عندما لا يفهم عقول البعض من الناس، المحبين المتصوفة بمختلف مقاماتهم ويتهمونهم بالكفر مثلاً، أو بأنَّهم قوم مجانين يقول الغزالي في هذا الصدد: "إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية، رماه الخلق بالحجارة، أي يخرج كلامهم على حد عقولهم، فيرون ما يقوله جنوناً أو كفراً. فمقصد العارفين كلهم صلته ولقاؤه فقط... ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه، وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية"[44]، وهذه إشارة طيبة

من الإمام الغزالي تفيد قصور عقول الذين يرمون الصوفية بالجنون والكفر عن إدراك حالهم.

الخاتمة:

مقام المحبة عند رابعة العدوية كان معبِّراً عن طابع زهدي خاص بالبصرة، تسرَّب منها إلى التصوف بعد رسوخ أركانه في أواخر القرن (الثالث الهجري /التاسع الميلادي)، وكان هذا اللون الزهدي نابعاً من ظروف البصرة بالذات. فرابعة لم تكن وحيدة في هذا التوجه الروحي، بل ظهر العديد من المحبون معها، ولكنها كانت أكثر ظهوراً ، فغاية حبها في الله حباً وشوقاً فيه، والبعض الآخر اتجه هذا الاتجاه الروحي رغبة في التخلص من أحزانه وهمومه، والبعض الآخر استوت رحمة الله وعذابه له، فهو محب له على كل حال، وهذا المقام تميز بأصحابه لأنَّهم جعلوا منه أكمل المقامات وأعلاها. فرابعة العدوية جعلت من المحبة الغاية القصوى التي ترجوها، فما بعد إدراك مقام المحبة إلا ظهور ثمارها كالشوق والأنس والرضا ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدمة من مقدماتها كالتوبة والصبر والزهد وغيرها. ومقام المحبة عند رابعة لم يتحقق لها إلا بعد نظرها بعينها إلى ما أنعمه الله عليها، ونظرت بقلبها إلى قرب الله سبحانه وتعالى منها وعنايته لها، وعندما نظرت بإيمان وحقيقة إلى ما أغدقه الله عليها، فأحبت الله عز وجل. والله سبحانه وتعالى منعم على كل عابد صادق أطاع الله ورسوله لقوله تعالى: **﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾** سورة النساء: الآية،69.

هوامش البحث ومراجعه:

1- رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب من كره أنْ يعود إلى الكفر كما يكره أنْ يلقى في النار من الإيمان، رقم الحديث16، ص25.

2- رواه الترمذي حديث أبي الدرداء، قال حديث حسن غريب، ينظر: تحفة الأحوذي ج9، ص462.

3- مقاييس اللغة ج2، م2، تحقيق عبد السلام هارون، مصر 1969، ص186.

4- ابن منظور: لسان العرب إعداد يوسف خياط، بيروت ، دار اللسان.

5- ينظر، لسان العرب، مادة عشق.

6- ديوان الشبلى، جمع وتحقيق، كامل مصطفى الشيبى، بغداد 1967، ط1، ص120.

7- مراد وهبه ويوسف شلاله:المعجم الفلسفي،ج1، بيروت،1978، ص78،77.

8- نفس المرجع ،ج1، ص441 .

9- نفس المرجع ،ج1، ص441.

10- نفس المرجع،ج1،ص441.

11- عبد الفتاح: في التصوف والأخلاق ودراسات، بيروت، دارا العلم،1970 ، ط2، ص156.

12- السراج الطوسي: اللمع، مصر، 1960م ، ط1، ص68.

13- أبو طالب المكي: قوت القلوب،ج1، بيروت، دار صادر،1980م، ص178. و أيضاً الغزالي: إحياء علوم الدين،ج4، ص193، القاهرة.1939.

14- السراج الطوسي: اللمع65-66.

15- نفس المصدر، ص65-66.

16- السهروردى: عوارف المعارف، مصر،1939، ط3، ص423.

17- السهروردى :جذب القلوب ،مصر،1939،ص23 .

18- رواه الترمذي، من حديث أبى الدر داء قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم- : "كان من دعاء داود" اللهم إني أسالك حبك وحب من يحبك، والعمل الذي يبلغني حبك، اللهم اجعل حبك أحب إليَّ من نفسي وأهلي ومن الماء البارد".

19- السراج الطوسى: اللمع، ص86، وأيضا السهروردي: عوارف المعارف، ص455.

20- ينظر: السهروردي: عوارف المعارف،456.

21- ينظر: السهروردى: عوارف المعارف، ص456.

22- فريد الدين العطار: تذكرة الأولياء،ج8، مصر،1970، ص111.

23-الذهبي: سيرة أعلام النبلاء،ج7، رابعة العدوية، تحقيق: صالح واشرف أرنؤوط،1960ص32. وينظر: عبد المنعم الحفني: الموسوعة الصوفية وأعلام المنكرين عليه والطرق الصوفية، القاهرة، دار الرشاد،1992، ط1، ص172.

24- الذهبي: سيرة الإعلام،ج7، ص32.

25- كامل مصطفى الشيبى: صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، بيروت، دار المناهل،1997، ط1، ص62.

26-ينظر: كامل مصطفى الشيبي: صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، ص64.

27- كامل مصطفى الشيبي: صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي ص63.

28- نفس المرجع ، ص63.

29- نفس المرجع، ص64.

30- نفس المرجع، ص64.

31- نفس المرجع، ص 65.

32- الحفني: الموسوعة الصوفية، ص172.

33- نفس المرجع، ص172.

(*) لباس واسع وفضفاض.

34- الحفنى: الموسوعة الصوفية، ص172.

(*) أحمد بن على بن إبراهيم بن محمد بن أبى بكر بن إسماعيل بن عمر بن على بن عثمان ابن الحسين بن محمد بن موسى بن يحيى الحسيني شهاب أبو الفتيان، ينظر: ابن الملقن: طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريبة، القاهرة، مكتبة الخانجي، 1999، ط2، ص422 .

35- محمد جودت: بحار الولاية المحمدية في مناقب أعمال الصوفية، القاهرة، دار غريب، 1998م، ط1، ص506 -507.

36- الحفني الموسوعة الصوفية، ص173.

37- رواه مسلم، كتاب الزهد والرقائق، رقم الحديث 2965 .

38- الحفني: الموسوعة الصوفية، ص173

39- نفس المرجع، ص173.

40- رضا كحاله: أعلام النساء رابعة بنت إسماعيل العدوية، 1959، ط2، ص33، وأيضا الحفني: الموسوعة الصوفية، ص73.

41- الغزالى: إحياء علوم الدين ج4، ص310-311.

42 – ينظر: كامل مصطفى الشيبي: صفحات مكثفة من تاريخ التصوف الإسلامي، ص65، الغزالي: إحياء علوم الدين ج4، ص310-311.

43- رواه البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنَّها مخلوقة، رقم الحديث،3072.

44- ينظر: الغزالي: إحياء علوم الدين ج4، ص311.